

مسألة المعرفة

حيرة الفلاسفة فيها قديما وحديثا
للأستاذ الفيلسوف محمد فريد بك وجدى

أمة نمت في مرد ، أو فرد تجمعت فيه أمة . ذلك هو الرجل الذى صنع نفسه بنفسه كايقول
الانسكايز . والذي أجاد الصنعة كل الأجاد
تقرأ سيرته فتشعر أنك تقاب في سفر جامع حافل بالتليد والطريف . ونحس نفسك أمام
بنيان شامخ ، تخيرت أسسه من لبنات العلم الصحيح ، واتخذت قواعده من قوائم المعرفة الصحيحة
ذلك هو علامتنا الكبير الأستاذ فريد بك وجدى ، صاحب المؤلفات الشهيرة ، والمجلدات
الضخمة ، والموسوعات الدائمة الصيت ، وبحسبك أن تعلم أنه صاحب دائرة معارف القرن
العشرين لتعرف أي معجزة أتى بها العصر ، وتفهم أي فخر أكتبه الشرق
تفضل على (المعرفة) وقراءتها ، بتعريف المعرفة من ناحيتي العلم والفلسفة وآثرنا وضعه في هذا
المكان على مقالنا الذى يراه القراء في مكان آخر .
وبجد القارئ صورته على الصفحة التالية . أما مقالنا فقد ابتداء بقوله : —

المحرد

فكرت في شيء أكتبه لهذه المجلة الناشئة فأثار اسمها في نفسى مسألة المعرفة
في الفلسفة ، وأذكرها تلك المنازعات العنيفة ، والبحوث المستفيضة التى حدثت
حولها قديما وحديثا ، فرأيت أن أجمل القول فيها للقارئ . ولعله أول بحث في
هذه المسألة على صفحات مجلة عربية

كيف يعرف عقلنا الأشياء ؟

هذا سؤال يحسبه الرجل العادى لا يستحق البحث ولا المناقشة ولكنه
لدى الفلاسفة شطر الفلسفة . بل شطرها الأهم الذى تركزت فيه كل جهود الإنسان
منذ تنبه لتحديد علاقاته بالكون والكونيات

من الأمور البديهية أن الأشياء الخارجية والعقل الذى يدركها ، شيان متميزان ،
بل ومن بعض الوجوه شيان متناقضان ، ولكن توجد بينهما علاقة ما ، فما هي
تلك العلاقة ؟

كيف نفهم أن الأشياء ، وبخاصة الأشياء الخارجة عنا ، المخالفة لطبيعة العقل كل الخلاف ، يدركها هذا العقل وتمثل فيه ؟
 أول ما يتبادر إلى الذهن من حلول هذه المسألة . أن يقال إن العقل ترسم عليه صور الأشياء كما ترسم المرئيات على صفحة المرآة ، فيحدث فيه شعور بها وإدراك لها



(صورة العلامة فريد بك وجدى)

هذا حسن . ولكن كيف يمكننا أن نفهم أن تأثيرا يرد على العقل من الخارج ، أو حركة تنطبع منه في المخ تكون نتيجة أن يحدث فيه هذا الشعور المفضى إلى الإدراك ؟
 سواء أفهمنا هذا الأمر أم جهلناه ، فإنه واقع لا محالة ، ولا سبيل إلى نكرانه .
 فلنسلم به وإن كنا لم نصل إلى فهمه ، ولننظر في أمر آخر ، وهو أن هذا الشعور الذى يثيره الشئ الخارجى فى العقل . هل هو صورته الصحيحة فى الواقع ؟
 هذا مثار خلاف شديد بين الفلاسفة . فالذين سبقوا منهم عهد سقراط قالوا إن الحواس الإنسانية تعجز عن ضبط كل ما هو واقع خارجها ، فأنحصله كثيرا ما يكون عرضة للتغير ، وموجبا للانخداع . قالوا لا يعقل أن يكون مانحس به

من لون أو حرارة في الخارج هو بعينه الموجود منه في الواقع لا أكثر ولا أقل .
 فرأى الفلاسفة الأولون من اليونانيين أن يشركوا التفهم فيما يرد على العقل من
 المدركات . ولكن هذا التفهم نفسه عمل عقلي ، والعقل كما قررنا لا يرد عليه
 من الخارج إلا صورة تناسب قواه المحدودة ، فإذا أعمل فيه قوة التفهم فهل يكون
 ما يحصله هو نفس الأمر الواقع ؟

هؤلاء الفلاسفة الأولون لم يقدرُوا قدر هذا الاستشكال ، وأخذوا
 يستخدمون لتحقيق المدركات كل ما يستطيعون استخدامه من وسائل التفهم ،
 فبنوا على ذلك نظرياتهم ومقرراتهم في مختلف العلوم . جرى على هذه السنة
 هيراقليط وامبيدوكل وأناغزاغور وديموكريت ومن نحنا نحوم ، فكانوا
 يفترضون النظريات ويحاولون إثباتها معتبرينها معبرة عن الواقع المحسوس غير
 حاسبين حساباً للطبيعة نفسها ، ولقيمة الوسائل التي يتوسلون بها لتقرير حوادثها
 وموجوداتها

فلما نشأ سقراط نه على هذا النقص وقرر أن الفلاسفة الأولين لم يأبهوا
 إلى أن العلم الذي يقيمون صرحه هو من عمل العقل ، والعقل لا تتأدى إليه إلا
 مدركات ناقصة متقلبة ، على حين أن غرض العلم هو إدراك الحقيقة الكلية
 الثابتة ثبوتاً مطلقاً

فلما جاء أفلاطون وتلميذه أرسطو قررا أن الحقيقة الثابتة التي لا يعطينا
 العقل عنها إلا إدراكاً مشوشاً ناقصاً هي من العالم غير المادى الذى لا يدركه إلا
 الوجدان العقلي وحده ، فليطلق عليه اسم المثال أو الصورة أو غيرهما . إلا إنه في
 جوهره المدرك العام الذى يصل إليه العقل وحده ثم يعكسه على الخارج . فيكون على
 موجب هذا المذهب أن ما يناله العقل بوساطة الفكر هو المظهر الصحيح لما هو
 موجود في الخارج . ومن هنا تتحقق الوحدة بين العقل وما يدركه من أشياء الوجود ،
 وبذلك تصبح مسألة المعرفة محلولة على أتم ما يكون .

ولكن لم تلبث هذه النظرية أن اصطدمت بعقبات خطيرة ، فأن الأسباب

التي منعت اعتبار الشعور بالأشياء الخارجية نسخة صحيحة منها ، منعت من اعتبار المدركات صورة صحيحة للحقائق غير المادية ، واستحال الأمر إلى معرفة هل هذا الوجدان العقلي الصالح لأدراك الواقع من الأشياء فوق المحسوسة هو غير نتيجة تجريدات عقلية متتابعة تباعد عن الواقع في كل درجة من درجاتها وتعزى المعرفة من موضوعها الأصلي . فوجب والحالة هذه البحث عن تفسير آخر لمسألة المعرفة

لما نبغ الفيلسوف أبيقور افتراض وجود صور متوسطة للأشياء غاية في اللطف ولكنها مادية من نوع مادة الروح (والروح مادية في مذهبه) تشع من الكائنات وتصل بالعقل ، أو بالعين مباشرة فيدركها . وبأدراكها يكون مدركا للأجسام التي تشع هي منها ولكن هذا المذهب قد أثار من الشبه أكثر مما أثاره أى مذهب تقدمه فلم يرفع به أحد رأسا

فلما انتهى الأمر إلى الفلاسفة المحدثين من الأوربيين . رفضوا أن يعترفوا بأن للعقل إدراكا مباشرا على الأشياء ، ولا وجدانا تتجلى فيه حقائقها الخارجية بدون وساطة

فأما ديكارت فقد حذف على نحو ما فعله أفلاطون وأرسطو المعرفة من طريق الحس ، ولكن لايحل محلها الوجدان العقلي المباشر ، بل قال إن الروح تدرك خاصة التحيز للأجسام بفطرتها على وجه واضح متميز . ولا يستنتج من هذا أنها تدرك الواقع مباشرة ولكنها لعلها من ناحية أخرى بوجود الله وأنه الخالق للكون والموجد لجميع خصائصه ، فأنها تعلم تبعا لذلك بأن كل ما تدركه من المتحيزات حق لأمرية فيه . فهي بذلك تدرك الواقع بدون أن تتخطى ذاتها . فالوجود الخارجى في حقيقته ليس عنده بشئ غير الفكر الذى يتولد فينا عنه ، وهذا الفكر فى الواقع هو فكر الله نفسه لأنه مستمد منه وقد تابعه فى ذلك ، مالبرانش وسبينوزا .

أما لينتز فقد انفرد عنهما بنظرية هامة . وهي أن الفكر لما كان مرآة للموجودات ، فإن الروح ترى فيه الأشياء بدون أى عمل مباشر من تلك الموجودات ولكن لما جاء (لوك) أرجع جميع المدركات إلى الشعور . فكان بمذهبه هذا معيدا عهد الفلاسفة اليونانيين القدماء الذين سبقوا سقراط في الوجود أما الفيلسوف الألماني (كانت) فقد قرر أن ليس العقل هو الذى يرتب مدركاته على الأشياء الخارجة عنه ، ولكن تلك الأشياء هى التى تترتب على مقتضاه . وكلنا يعلم بأى تحليل دقيق قرر الفيلسوف الألماني بأن العقل يضع فى كل معرفة شيئا من جوهره ، حتى فى أصغر المدركات وأحقرها . وليست وظيفة العلم إلا تحديد النواميس الضرورية لقيادة الكون ، وهى بهذا الاعتبار حقيقية وثابتة ، ومسيطرة على حدوث الظواهر الطبيعية وأما الفيلسوف الألماني (فيخت) فالواقع المحقق عنده هو الذات المطلقة وأما (شيلنج) وهو ألماني كالذى تقدمه ، فقال إن الوجود فكرة تتجسد فى الخارج

وذهب (هيجل) وهو من اطن لسابقه إلى أن الطبيعة هى مظهر الفكر المطابق وزاد عليهم (شوبنهاور) وهو من بنى جلدتهم فقال إن الكون ليس إلا صورة متمثلة ، وإذا أمكن أن يقال بأنه موجود باعتبار أنه إرادة فذلك على شرط أن يكون مدركا على مثال القوة المدركة له

أما الفلاسفة المعاصرون لنا فقد انقسموا فى هذه المسئلة إلى فرق كل منها تشايح مذهباً من المذاهب التى بسطناها . فمنهم من يتابعون أفلاطون ، ومنهم من يسايرون ديكارت ، وآخرون يحارون (كانت) . ولديهم أن الوجود ليس بشئ متميز عن الفكر الذى يجب تحديده علاقته بالمعرفة نفسها . وعليه فليس فى الأمر غير أشكال متنوعة من المعرفة يجب تمحيصها وتقدير قيمتها . فخلت عندهم بذلك مسئلة المعرفة محل مسئلة الوجود نفسه ، وأصبحت الفلسفة يحذاقها نقداً محضاً ؟ محمد فريد وجدي